دفع الشبهات وما حوّم حول أحمد بن ماجد من تُرّهات

عُبادة كُحيلة *

أسد البحار شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي ملاح عربي نابغة، أشهر من أن يعرَّف به، وقد وصف نفسه في صفحة العنوان بكتابه " الفوائد " بأنه " رئيس علم البحر وفاضله وأستاذ هذا الفن وكامله ".

من عجب أننا لا نعلم الكثير عن حياته، وهو في مؤلفاته الكثيرة التي تتاهى إلينا بعضها، لا يأتي بما يفيد عن حياته، ومن الثابت أنه ينتمي إلى أسرة لها باع كبير بركوب البحر، ولأبيه مصنف يعرف " بالأرجوزة الحجازية " في نيف وألف بيت، استدرك هو عليه.

ولد أحمد بن ماجد حوالي سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م[١] أو في سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٥م [٢] بجُلْفار (أو جُرْفار وهي رأس الخيمة الحالية) وأخذ بمقود السفينة، وهو بعد في السادسة عشر من عمره، وظل لسنين يتنقل بين شواطئ ما نعرفه اليوم بالمحيط الهندي، وخرج علينا قبل وفاته حوالي سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م باثنين وثلاثين إلى خمسة وثلاثين مؤلفاً[٣].

على أن مؤلف أحمد بن ماجد الرئيس " الفوائد في أصول علم البحر والقواعد " الذي أخرجه في العام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م، بعد أن نقحه عدة مرات [٤] وهو معلمة بحرية واسعة تتضمن اثنتى عشرة فائدة (أي فصلاً).

وإذا كان ابن ماجد قد استخدم لغة النثر في كتابه " الفوائد " فإنه استخدم لغة الشعر ونعني بها هنا الرجز في سائر كتبه، وهي تتناول موضوعات متفرقة، لكنها تدور في إطار المرشدات البحرية البورتولانية[٥].

---

* كاتب ومؤرخ. أستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة. محرر الكتاب

أهم تلك الكتب هي " حاوية الاختصار في أصول علم البحار " وهو أول مؤلفاته و" ثلاث أزهار في معرفة البحار "[٦].

عنى بتراث هذا الملاح العظيم وقام على دراسته ونشره المستشرق الفرنسي فيرّان G.Ferrand والمستشرق الروسي شوموفسكي T.Shumovski.

يقول فيران[٧]:

" إن كتاب الفوائد يدعو إلى الإعجاب، وأعتبره ذروة التأليف الفلكي الملاحي لعصره، كما أعتبر ابن ماجد أول مؤلف للمرشدات الملاحية الحديثة، ووصفه للبحر الأحمر لم يفقه ولم يعادله – باستثناء بعض التصحيحات في العروض – أي مرشد أوروبي في الملاحة الشراعية، كما أن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح الملاحية وطرق الملاحة الساحلية والبعيدة المدى، تتميز بأقصى درجة من الدقة والتفصيل، يمكن أن نتوقعها في ذلك العصر ".

لذلك يعد أحمد بن ماجد هو مؤسس علوم البحار Oceanographia[٨]، سبقت مؤلفاته مؤلفات أقدم أوقيانوغرافي غربي، وهو لويجي فرناندو مارسيللي Luigi Fernando Marsigli بسنوات مديدة [٩]، كما يعد " الفوائد " مصدراً رئيساً من مصادر سيدي علي ريس (٩٧٠هـ/١٥٦٢م) أمير البحر التركي في كتابه " المحيط " الذائع الصيت عند الأوربيين[١٠].

تناهت مرشدات ابن ماجد إلى البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين، مثلما تناهت مرشدات غيره من المسلمين، ومن الملاحظ أن أول مؤلفاته وهو حاوية الاختصار يعود – كما ذكرنا – إلى سنة ٨٩٦هـ/١٤٦٢م، أي قبل مقدمهم بنيف وثلاثين سنة.

نعرض الآن لنظرية مهمة، مؤداها أن أحمد بن ماجد كان دليل داجاما في رحلته من مَلِنْدَه على ساحل الزَّنْج إلى قاليقوط على ساحل مليبار في بلاد الهند.

في أول الفصل الثاني من كتابه " البرق اليماني في الفتح العثماني " يقول قطب الدين النهروالي[١١]

"وقع في أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفُرْنُقال اللعين[١٢]، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند، وكان طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ويلجون في الظلمات، ويمرون بموقع قريب من جبال القمر – بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أي أبيض، وهي مادة اصل بحر النيل – ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الأمواج، لا تستقربه سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد[١٣]. واستمروا على ذلك مدةً، وهم يهلكون في ذلك المكان، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن خلص منهم غراب[١٤] إلى الهند، فلازالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر، إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج، وكان يقال له إلى ملندي [١٥]، وعاشره في السكر، فعلمه الطريق في حال سكره. وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا في البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا في بحر الهند، وبنوا كوة[١٦] من بلاد الدكن قلعة يسمونها توتا، ثم أخذوا هرموز[١٧]، وتقووا هنالك، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال، فساروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ".

يذهب نفر من الفرنج إلى أن نص النهروالى واضح من حيث نسبته إرشاد البرتغاليين إلى أحمد بن ماجد. ويحاول فيران[١٨] أن يوفق بين هذا النص وبين ما ورد في المصادر البرتغالية من أن الذي ارشدهم رَبَّان مسلم من أهل كَجرات Cujarat (بالهند) اسمه المعلم كاناكا (أو كانا) Malemo Canaqua (Cana) وأنه قاد داجاما إلى ملندة (في كينيا الحالية) في يوم الثلاثاء ٢٤ من أبريل ١٤٩٨، فوصل إلى قاليقوط (على ساحل مليبار) في يوم الأحد ٢٠ من مايو من العام نفسه. ويذهب إلى أن ماليمو تعني باللغة السواحلية (وبعض أصولها عربية) الشخص الماهر، أما كاناكا فليست اسماً، إنما هي صفة مستمدة من اللفظة السنسكريتية Ganika وتعني الحاسب أو المنجم، أما عن أنه مسلم من كَجرات، فلأن ابن ماجد كان يعطيها اهتماماً خاصاً في مؤلفاته، وربما كانت مركزاً لرحلاته البحرية[١٩].

مما يعزز ما يذهب إليه فيران أن النهروالي عاش في زمن قريب من زمن ابن ماجد، فقد ولد في سنة ٩١٧هـ/١٥١١م، ومات في سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٢م، كما أن كتابه " البرق اليماني " يعود تأليفه إلى سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٧م.

تحمس لهذه النظرية – التي ما يزال الفرنج يتمسكون بها – عدد من العرب، ووجدوا فيها مدعاةً لزهوهم[٢٠]. على أنه يتضح لدينا أن هذه النظرية غير صحيحة.

١- فالنهروالي تفرد بين كتاب عصره بهذه الرواية، ولا نجد خبراً عنها عند سليمان المهري (ت قبل ٩٦١هـ/١٥٥٤م) في " العمدة المهرية " ولا زين الدين (ت بعد ٩٩١هـ/١٥٨٣م) في " تحفة المجاهدين "، وكان قميناً بسيدي علي ريس – وهو شبه معاصر لابن ماجد – أن يشير إليها، خصوصاً وأنه نفسه كان له دور في مناهضة البرتغاليين، فضلاً عن أن كتب ابن ماجد – باعترافه – كانت مصدراً رئيساً من مصادر كتابه " المحيط "[٢١].

٢- ولا يرد اسم ابن ماجد في المصادر البرتغالية، رغما عن سهولة نقله إلى لغتهم، حتى وإن أتى هذا النقل محرفاً، والجدير بالذكر أن البرتغاليين كانوا حريصين على ذكر أسماء من كانوا يعاونونهم في المشرق والمغرب معاً، وبعض هؤلاء كانت أسماؤهم أصعب في نقلها إلى البرتغالية من اسم ابن ماجد(٢٢).

ننوه هنا إلى ان أميرنا المكرَّم سلطان بن محمد القاسمي - نضَّر الله أيامه وأبقاه- له كتاب وسمه " ببيان للمؤرخين الأماجد في براءة ابن ماجد"(٢٣) عاود فيه الوثائق البرتغالية، وهو ما لم يتهيأ لنا، وتوصل فيه إلى ما توصلنا إليه، ويزيد علينا بأن كاناكا هذا ليس مسلماً إنما هو نصراني من أهل كَجرات.

٣- ولا يشير ابن ماجد إلى تلك الواقعة في كتبه، برغم من غزارة إنتاجه، وبرغم من إشارته إلى البرتغاليين في غير موضع من كتبه، وهو في تلك الإشارات، يرتبط ذكرهم عنده بذكريات غير طيبة.

يقول في الأرجوزة السُّقالية، وتعود إلى سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، وهو يصف وصول البرتغاليين إلى الهند (٢٤) :

وجالكاليكوت خذ ذي الفايدة ... لعام تسعماية وست زايدة
وباع فيها واشترى وحكما ... والسامري برطله وظلما
وسار فيها مبغض الإسلام ... والناس في خوف واهتمام

وفي الأرجوزة المعلقية يقول (٢٥) :

يزوج الكافر مسلمات ... ويأخذ المسلم كافرات
إن قلت كفاراً فما هم كفرة ... أو قلت إسلاما فغير مخبره
عندهم السرقة قد سنوها ... بينهم فليس ينكروها
ويأكل الكلب لحم المسلم ... ما بينهم فليس فيهم محتم
ويشربون الخمر في الأسواق ... ولا يصلون على الإطلاق

٤- ومع خبرة ابن ماجد العظيمة ببحر الهند، إلا أنه لدى وصول البرتغاليين إلى ملندة كان شيخاً كبيراً في السبعين أو نحوها، أي إنه صار في سن لا تسمح له ببذل الجهد في مرافقتهم، ونعلم أنه حول هذه السن كف عن تأليف مرشداته الملاحية.

٥- بدأت رحلة داجاما في ٢٤ من إبريل، وكان شهر رمضان قد بدأ قبل ذلك بأيام [٢٦]، فكيف يجوز لشيخ كبير أن يعاقر خمراً في شهر الصيام، وهو من هو في تمسكه بأهداب هذا الدين القيم.

يقول في الفوائد[٢٧] الذي ألفه قبل مقدم البرتغاليين بسنوات قليلة :

" وينبغي أنك إذا ركبت البحر تلزم الطهارة، فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عز وجل، فلا تغفل عن ذكره، فإنه شديد العقاب، وإنه لغفور رحيم، لأنه يمهل ولا يهمل، فلا يغرنك بالله الغرور ".

يتبين لنا مما سبق أن مرشد البرتغاليين إلى الهند، هو الشخص نفسه الذي ورد ذكره في كتبهم أي " المعلم كاناكا " ويلوح لنا أنه اسم دارج عند الهنود، فمن الأطباء الذين ورد ذكرهم في كتاب " الفهرست " لابن النديم (ت ٤٣٨هـ) [٢٨] هندي اسمه " كنكه " له أربعة كتب في الطب، كما كان على دراية بالنجوم.

أما أن يكون إرشاد ابن ماجد للبرتغاليين مدعاةً لزهو العرب، فالصحيح عكس ذلك تماماً، لأن أي ملاح أقصر قامةً من ابن ماجد، كان في إمكانه أن يقوم بهذه المهمة، خصوصاً وأن الطريق إلى بلاد الهند وبلاد أخرى أبعد من الهند كانت مطروقةً بالنسبة للعرب منذ آماد بعيدة، وتوافرت لديهم خبرة بها ودربة عليها، كما أن البرتغاليين ونظراءهم الإسبان كان لديهم تاريخ أسود مع المسلمين في بلاد الأندلس وفي بلاد المغرب، أعادوه مرة أخرى، حين أشعلوا النار في البحار الشرقية.

يبقى لنا أن نتساءل في نهاية تلك الأطروحة لماذا أتى النهروالي بهـذه الرواية.

نعتقد أن الدافع إليها، هي أنه من عادة الناس أن ينسبوا االحوادث الكبيرة إلى شخصيات كبيرة، وكان اقتحام البرتغاليين للبحار الشرقية حادثـةً كبيـرةً، وكان ابن ماجد شخصيةً كبيرةً.

لا يبعد أيضاً أن يكون ولاء النهروالي للعثمانيين وثناؤه عليهم[٢٩] دافعاً للطعن في غيرهم[٣٠] وكان ابن ماجد ينتمي إلى عُمان، ولم تكن عُمان تنتمـي إلى العثمانيين.

الهوامش :

(١) كما يذهب عبد الهادي التازي : ابن ماجد والبرتغال. مسقط. وزارة التراث ١٩٨٦. ص ص ٥٠-٥١.

(٢) كما يذهب أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح. القاهرة، دار الكاتب العربـي ١٩٦٧. ص ص ٤٢-٤٤.

(٣) ثلاث أزهار في معرفة البحار. تحقيق ثيودور شوموفسكي. نشر محمد منيـر مرسـي. القاهرة، عالم الكتب ١٩٦٩. ص ص ٧٧-٨٧.

(٤) كراتشكو فسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين هاشـم. القـاهرة ١٩٦٣ ج٢ ص ٥٧٤، عبد العليم : المرجع نفسه ص ١٤.

(٥) ثلاث أزهار : ص ص ٩٠-٩١ من دراسة شوموفسكي.

(٦) نشر فيران الحاوية ضمن الكتاب الجامع الذي يشمل الفوائد. باريس ١٩٢٢ أما ثـلاث أزهار فقد حققها شوموفسكي في ١٩٥٧ ثم أعيد نشرها في القاهرة ١٩٦٩.

(٧) كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٧٧.

(٨) أو Oceanologia.

(٩) أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب. الكويت، عالم المعرفة١٩٧٩ ص٨

(١٠) راجع بشأنه كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢ ص ص ٥٨٢ – ٥٨٥، وانظر أيضاً ثلاث أزهار، ص ص ٧١-٧٢ من دراسة شوموفسكي.

(١١) ط١ أشرف على طبعه حمد الجاسر. الرياض، دار اليمامة ١٩٦٧. ص ص ١٨-١٩.

(١٢) أي البرتغاليون.

(١٣) يقصد " رأس الزوابع " الذي صار بعد ذلك " رأس الرجاء الصالح ".

(١٤) نوع من السفن.

(١٥) أي الملندي، وهو كما يذهب فيران تحريف للفظة البرتغالية Almirante وهو اللقب الذي كان يحمله داجاما. كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢ ص ٥٧١.

(١٦) جوا Goa المستعمرة البرتغالية الرئيسة في بلاد الهند.

(١٧) هرمز وكانت مملكة عربية ذات نشاط بحري واسع.

(١٨) في مقال له في حوليات الجمعية الجغرافية بباريس وحذا حذوه شوموفسكي في سنة ١٩٥٧ عندما نشر ثلاث أزهار ص ص ٨٤-٨٨ وكذلك كراتشكوفسكي : مع المخطوطات العربية. ترجمة محمد منير مرسي. القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٦٩. ص ص ١٠٩-١١٥.

(١٩) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ج ٢ ص ص ٥٦٩-٥٧٣.

(٢٠) مثل أنور عبد العليم في كتابه " ابن ماجد الملاح " الذي صدر في ١٩٦٧، لكنه عدل عن رأيه في كتابه الآخر " الملاحة وعلوم البحار " الذي صدر في ١٩٧٩.

(٢١) كراتشكوفسكي : المرجع نفسه ج ٢. ص ٥٧١، عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار. ص ٥٥.

(٢٢) التازي : المرجع نفسه، ص ص ٢١-٢٢.

(٢٣) الشارقة ٢٠٠٠.

(٢٤) ثلاث أزهار ص ٤٣.

(٢٥) المصدر نفسه ص ٦٥.

(٢٦) أول رمضان ٩٠٤هـ= ٢ من أبريل ١٤٩٨م.

(٢٧) ج٣ من نشرة فيران ورقة ٥٨ ظهر.

(٢٨) تحقيق رضا – تجدد. طهران ١٩٧١ص ٣٣٠. وانظر أيضاً " عيون الأنباء " لابن أبي أصيبعة. تحقيق نزار رضا. بيروت، مكتبة الحياة ١٩٦٥. ص ٤٧٣.

(٢٩) يقول عن السلطان مراد الثالث (٩٨٢هـ/١٥٧٤م – ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م) " واستمر فشملني بإنعام، وأنعم على أولادي بالتدريس، وأولاهم بكل إكرام وإحسان لطيف " ص ٣٦٢.

(٣٠) يصف هؤلاء بأنهم " عربان حمقى جهلاء ليسوا عقلاء، بل غفلاء ينخدعون بالكلام الباطل، ويصدقون بالمموهات الأباطل، فركبوا من عقولهم متن عمياء، وخبطوا خبط عشواء " ص ص ٣٦-٣٧.